حول نسبة منظومة نحوية
للخليل بن أحمد الفراهيدي

د. عمر عبد الرحمن الساريسي

كيف صرت إلى هذه المنظومة

رغبت إلى بعض طالباتي العمانيات، اللواتي يدرسن في كلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي، أن يرسلن لي ما يمكن أن تصل إليه أيديهن، مما كُتب عن الخليل بن أحمد الفراهيدي في عُمان، فقد ذكرت بعض الروايات أنه ولد في بعض أنحائها، وذلك كي أستكمل ما يمكن أن يسعف في بحث كنت أعده عن شعره، بعد عودتي إلى جامعة الزرقاء الأهلية من العمل في الخليج. فأرسلت إليَّ الطالبة المهذبة حنان سيف العجمي أوراقًا بهذا الخصوص، منها أجزاء مصورة من كتاب صادر هناك، عن منظومة نحوية منسوبة إلى الخليل، تقترب من الثلاثمئة بيت !

والحق أنني فوجئت بهذا الكتاب. فلئن ثبتت نسبته إليه فلسوف يكون إضافة نوعية إلى إبداعات هذا الرجل العبقري، ولكن عصره لم يكن عصر النظم التعليمي أو عصر الألفيات النحوية.

ولما كان الكتاب لم يصلني مصورًا بتمامه، رغبت إلى صديقي إبراهيم الجراح وزميلي في العمل في وزارة التربية والتعليم الأردنية، أن يعمل على أن يصلني الكتاب كاملاً. فقد عمل في عُمان نحو عقد من الزمان في الإشراف التربوي، فأرسل إلى ولده عامر، وهو يعمل هناك، فسارع إلى إرساله مع أقرب

بريد بشري قادم إلى عَمان. فالشكر إليه وإلى أبيه وإلى الطالبة حنان موصول وموفور.

الكتاب والتحقيق

لقد قام الأستاذ الدكتور أحمد عفيفي، أستاذ النحو والصرف والعروض بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة، بتحقيق القصيدة المنسوبة للخليل بن أحمد. وأصدر المنتدى الأدبي التابع لوزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عُمَان هذا التحقيق في كتاب بعنوان «المنظومة النحوية للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٠هـ(دراسة وتحقيق». الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م. وقد ألقى فيه من قبل محاضرة ثقافية مساء يوم الثلاثاء ٢٠/ ٦/ ١٩٩٥، ضمن فعاليات المنتدى الأدبي وقد وقع الكتاب في ٢٣٣ صفحة.

وقد قسم الكتاب قسمين أساسيين: الأول: الدراسة، والآخر: التحقيق.

وقد جاء في القسم الأول الفصول التالية:

(١) الخليل وشخصيته.

(٢) المنظومة.

(٣) مصطلحات الخليل.

(٣) (مكرر) الخليل مصدر المصطلحات النحوية.

(٤) الأعلام الواردة بين التمثيل والحقيقة.

(٥) عناوين الخليل في المنظومة.

(٦) قضايا نحوية للمناقشة، منها مثلاً، أمس بين الإعراب والبناء، حتى وعملها، النداء المضاف، قط، قد، حسب، كفى.

(٧) الأمثلة والنماذج التطبيقية. (٨) نتائج الدراسة.

وفي القسم الثاني: وصف نسخ المخطوطة، وصورها، ومنهج التحقيق.

وقد وقع النص المحقق في ٢٩٣ بيتًا من البحر الكامل، ومطلعه:

الحمد لله الحميد بمنّه أولى وأفضلُ ما ابتدأت وأوجبُ

وآخره واستغن أنت ببعضه عن بعضه وصن الذي علّمت لا يتشذب

خطة بحث

وقد يرى الباحث أن عزو هذه المنظومة النحوية للخليل بن أحمد الفراهيدي يمكن أن يُتساءل عنه بطريقتين: أولهما عام، نناقش فيه أمورًا أساسية مهمة، وثانيهما خاص، نحاور فيه المحقق وننظر في منهجه في التحقيق، ثم نقلب صفحات المنظومة وننظر فيها من الداخل، وفي الخط الذي كتبت به. وذلك كي نصل في النهاية إلى رأي علمي يمكن أن يوصل إلى إجابة مناسبة عن هذه التساؤلات.

مناقشة عامة

وأول ما نتساءل عنه في أمر هذه النسبة هو تاريخها، وأعني ذكرها في المراجع منذ عصر الخليل، المتوفى عام ١٧٠هـ.

ويعرف الباحثون في حياة هذا الرجل وإبداعاته أن الكتب التي ترجمت له لم تذكر هذه المنظومة فيها[1].

(1) تجد ترجمته في:

١- الفهرست، ابن النديم، المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨هـ، ص ٤٢.

٢- معجم الأدباء، ياقوت، دار الفكر للطباعة والنشر، ط٣، ١٩٨٠، ٤/ ١٨، ١٦/ ٧٢.=

وهذا أمر يلفت الانتباه، فمؤلفو كتب الطبقات والتراجم لم يذكروا هذه القصيدة النحوية في إبداعات الخليل، منذ القرن الثاني والثالث الهجريين إلى القرون المتأخرة.

والاستثناء الوحيد من هذه المصنفات كتاب حقق قبل عدة عقود لخلف الأحمر، وهو «مقدمة في النحو».

ففي عام ١٩٦١ حقق عز الدين التنوخي (عضو المجمع العلمي العربي في

=٣- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ١٩٦٩، ١/ ١٧٢.

٤- إنباه الرواة في طبقات النحاة، ابن القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية ١٩٥٧، ١/ ٣٤١.

٥- مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة نهضة مصر، ١٩٥٥.

٦- طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر الزبيدي، دار المعارف، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ٤٧.

٧- بغية الوعاة في أخبار النحاة، السيوطي، مطبعة السعادة ١٣٢٦هـ.

٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، العماد الحنبلي، ١/ ٢٣٥.

٩- طبقات الشعراء، ابن المعتز، تحقيق عبد الستار فراج، دار المعارف ١٩٢٨، ص ٩٦.

١٠- المزهر – السيوطي، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وزميليه، ط٤ ١٩٥٨، ١/ ٤٠١.

وقد ذكرت بعض أشعاره في مراجع أخرى منها:

١- نزهة الجليس، ومنية الأديب الأنيس للموسوي، طبع مصر ١٢٩٣هـ، ١/ ٨٠.

٢- شرح المقامات الحريرية، الشريشي، ٢/ ٢٤٦.

٣- الجاسوس على القاموس، أحمد فارس الشدياق، ص ٢٢.

٤- الفلاكة والمفلكون – الدلجي – ٩٣، ٩٤.

دمشق) هذا الكتاب، ونشرته مديرية إحياء التراث القديم في وزارة الثقافة السورية.

وفي باب حروف النسق (العطف) يرد في هذا المصنف وعلى الصفحة ٨٥، قول المصنِّف: «وحروف النسق خمسة، وتسمى حروف العطف، وقد ذكرها الخليل بن أحمد في قصيدته في النحو، وهي قول الشاعر (كذا)

فانسق وصِلْ بالواو قولك كله وبلا وثمَّ أوْ، فليست تصعب
الفاء ناسقة لذلك عندنا وسبيلها رحب المذاهب مشعب»

وهنا تنشأ عندنا أسئلة نفكر فيها بصوت عال.

فخلف بن حيّان الأحمر، المتوفَّى نحو عام ١٨٠هـ، أي بعد وفاة الخليل بعشر سنوات، وهو بصري معاصر له، قد قيل فيه ما قيل، «من أنه يصنع الشعر وينسبه إلى العرب فلا يعرف»[١]. وهذا أمر لاندحة عنه في مدى الثقة بروايته، مع أنه قيل عنه فيما بعد أنه «نسك وكان يختم القرآن كل يوم وليلة... فلما نسك خرج إلى أهل الكوفة يعرفهم الأشعار التي أدخلها في أشعار الناس»[٢].

ومما يقوي الشك في هذه النسبة للخليل أنها الوحيدة منذ نهاية القرن الثاني الهجري حتى عام ١٩٩٥ ميلادية الذي حُقق فيه هذا الكتاب، فالنحاة لا يذكرون أن له (للخليل) قصيدة في النحو، كما يقول محقق كتاب «مقدمة في النحو لخلف الأحمر» نفسه[٣].

ويعلق هذا المحقق على قول خلف في النص المذكور: «وهي قول

(1) الوافي بالوفيات – الصفدي، ١٣/ ٣٥٣، الأعلام – الزركلي.
(2) المصدر السابق، ص ٨٦.
(3) المصدر السابق والصفحة نفسها.

الشاعر» قبل إيراد البيتين السابقين فيقول: «وصواب التعبير أن يقال: (وهي قوله) لعودة الضمير على متقدم. ولعله أراد أن يشير إلى أن الخليل كان شاعرًا، وكان بالفعل شاعرًا[١].أقول إنه وإن كان قول المحقق صحيحًا إلا أن حرفية النص تشتت الذهن فيتنازعه شاعران أحدهما الخليل.

ولا أدري إذا كان يحق لي أن أفصح عن إحساس خافت آخر يخالج النفس، في هذا الصدد، وهو عنوان هذا الكتاب الذي توفي مؤلفه في نهايات القرن الثاني الهجري «مقدمة في النحو»، ألا يبدو عنوانًا معاصرًا؟ وهل سمعنا بكتاب في العصور السحيقة يحمل اسم مقدمة؟ أما مقدمة ابن خلدون المتوفَّ (٨٠٨هـ(فقد أطلقت، فيما بعد، على كتابه الشهير في التاريخ: كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر[٢].

أما التساؤل العام الآخر عن هذه المخطوطة وأمر نسبتها للخليل، فهو البون الشاسع بين زمن الزعم بقيام الخليل بنظمها، وبين زمن النظم التعليمي في مادة النحو. إن أقدم أثر روي في هذا الباب، في حدود ما أعلم، هو ألفية ابن معطٍ الذي ذكره ابن مالك الأندلسي (٦٧٢هـ(في ألفيته:

وتقتضي رضا بغير سخط فائقةً ألفية ابن معطي
وهو يسبق حائز تفضيلاً مستوجب ثنائي الجميلا[٣]

(1) المصدر السابق والصفحة نفسها.

(2) طبعة دار الكتب العلمية – بيروت، ط٤، ١٩٧٨.

(3) محمد محيي الدين عبد الحميد، محقق شرح ابن عقيل (ت٧٦٩) على ألفية ابن مالك (ت٦٧٢هـ(. المكتبة العصرية – بيروت – ١٩٩٥، ١/ ١٠.

وابن معطٍ هذا توفي عام (٦٢٨هـ(.

يقول أحد الباحثين عن ابن مالك: «ولم ينتفع من جاء بعده بأن يحاكوه أو يدّعوا أنهم يزيدون عليه وينتصفون منه. ولو لم يُشِر في خطبته إلى ألفية ابن معطٍ لما ذكره الناس ولا عرفوه»[١].

ومع ذلك يذكر محقق ألفية ابن معطٍ بعض الأسماء الصغيرة في هذا الصدد، مثل شعبان بن محمد بن داود المصري الإقامة، الموصلي المولد، (٨٢٨هـ(، في منظومته «كفاية الغلام في إعراب الكلام» وعبد العزيز اللمطي المكناسي الميموني (نحو ٨٨٠هـ(فيما سمي بألفية النحو، وكذلك السيوطي (٩١١هـ(في ألفيته[٢].

وإذا قيل إن عصر الخليل قريب من نظم تعليمي مشهور آخر هو نظم أبان اللاحقي (٢٠٠هـ(لحكايات كليلة ودمنة[٣]، قلنا إن هذا النظم مختلف في مادته عن مثل هذه المخطوطة، فهي في مادة الأدب والقصة على ألسنة الحيوان، والمنظومة التي ندرسها في علمي النحو والصرف، وهو الذي يرى أنه تأخر زمن نظم الألفيات التعليمية فيه.

ومما يقوي في أنفسنا أمر هذا التساؤل، تساؤل أعمق، تمليه قضية فلسفية فطرية ولا تكاد تغيب عن ذهن، هو الزمن اللازم لتطور أي موضوع فكري، بين تاريخ بدايته وتواريخ بلوغه عصر الإبداع والإنتاج الجديد في أشكاله وألوانه.

---

(1) شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي ٥/ ١٢٩، بغية الوعاة ٤١٦.

(2) شرح ألفية ابن معطٍ – تحقيق د. علي موسى الشوملي، ١/ ١٦ – ٦٦.

(3) راجع الأغاني، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، ٢٠/ ٧٣، وكذلك طبقات الشعراء لابن المعتز، تحقيق عبد الستار فراج، دار المعارف ص ٢٤١.

ففي عصر الخليل قعّدت أولى القواعد النحوية والصرفية في عصر الخلفاء الراشدين والقرن الثاني الهجري، على أيدي الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ وأيدي بعض الصحابة المخضرمين من أمثال أبي الأسود الدؤلي ورجاله الذين بدؤوا في بناء أساسيات النحو وعلله. وسينقضي زمن طويل حتى يثمر هذا الأمر وَيُونِع ويصل إلى مرحلة الترف الفكري ونظم النحو في قصائد وألفيات، أم أن الخليل بن أحمد قد قُدّر له أن تأتي على يديه البدايات في هذا الأمر والنهايات؟ يضع أسس النحو وعلله ويفيد منها تلميذه سيبويه في كتابه، وفي العمر نفسه يكون لديه وقت فراغ يتفرغ فيه إلى نظم قصيدة في النحو تقترب من ثلاث مئة بيت؟

فإن قيل ألم يأت على يديه، بهذا الوصف، علم العروض الذي جاء مكتملاً تقريبًا؟ قلنا إن بين الأمرين فرقًا كبيرًا، فعلم العروض لا يقسّم، كما أن المراجع التي فيها أخبار الخليل قد تواتر القول فيها على نسبة العروض للخليل.

إن عصر الخليل هو عصر الإبداع، أما عصر وضع القصائد الطويلة في النحو والألفيات والتجميع في الموسوعات فقد تأخر كثيرًا.

حول أسباب نسبة المنظومة للخليل

إن الدكتور أحمد عفيفي قد اعتمد أمورًا معينة، فعدّها عوامل مساعدة في هذه النسبة، وسنعرض لها ولمدى الثقة بها في أمر هذه النسبة.

وأول ما لفت انتباهه في هذا الصدد نسبة بيتين فيه للخليل في كتاب لمصنِّف معاصر له، هو خلف الأحمر، وقد ناقشنا هذا الأمر في ضوء ما عرف عن هذا الراوية من عدم الأمانة العلمية.

وأعان الدكتور المحقق أمران آخران على ما يرى، وهما المصطلحات

النحوية الواردة فيها، والأعلام الذين ساق أسماءهم فيها.

أما المصطلحات فمثل الصفة والرفع والجر والنصب والجزم وما لم يسم فاعله. وبسبب تناثر مثل هذه المصطلحات في هذه المنظومة يحكم بنسبتها للخليل (ص٥٥- ٨٧)، الذي عرف أنه رأس مدرسة البصرة في النحويين، ومعلم الكسائي في رأس مدرسة الكوفيين أيضًا، ولا أدري إذا كان مثل هذا الأمر يقوي هذه النسبة، إذا كانت المصطلحات النحوية والصرفية مشاعًا يستخدمها الباحثون في موضوعاتها منذ أن عرفت، وفي كل زمان ومكان!؟.

أما الأعلام التي ذكرت في هذه المخطوطة (ص٩٢ وما بعدها) ومدى ما يمكن أن ترخي عليها من الأقدمية، فإن المدقق لا يكاد يجد من هذه الأسماء، مثل عبد السلام وغيره، ما يستحق أن يكون دليلاً على ذلك. فبعضها قد يطلق على أناس يولدون في عصرنا الحاضر مثل شوزب ومرحب وحوشب، ومنها ما يمكن أن يسمع في بعض أطراف الخليج العربي وحضرموت. والاسم الوحيد الذي يمكن أن يوقف عنده في هذا المجال هو اسم قطرب[1]، فهو مذكور من بين النحويين القائلين بنصب التاء إذا كانت ضمير رفع اتصلت بالفعل الماضي.

فنصبت لما أن أتت أصلية وكذاك ينصبها أخونا قطرب

ومن المعروف أن قطرب هذا لم يكن من تلاميذ الخليل، بل من تلاميذ تلميذه، وهو سيبويه. وقد توفي بعده بأكثر من ثلاثين عامًا (عام ٢٠٦هـ)[2].فكيف يكون قطرب أخًا للخليل وبينهما هذه السنون الطويلة؟

(1) ص ٩٦ من الكتاب المحقق.

(2) وفيات الأعيان ٤/ ٣١٢.

ولا يجري على لسان الخليل تلاميذه الأدنون مثل سيبويه والنضر بن الشميل وغيرهما؟ أغلب ظني أن ناظم هذه المخطوطة قد أورد هذا الاسم للتعمية والتدليس، وقد أسعفته القافية على ذلك، وعبارة «أخونا قطرب» ربما تشي بذلك، لما فيها من لهجة شعبية، لا ترقى إلى لغة الخليل.

ويخالج النفس خاطر خافت آخر، على طريق الأعلام الواردة في المخطوطة، مادام ذكرها يعني شيئًا. وهو السؤال عن دلالة ورود اسم زيد سبع عشرة مرة في المخطوطة، وورود اسم عمرو ثلاث عشرة مرة فيها[1]؟ أليس استعمال المشتغلين في النحو لاسم زيد وعمرو متأخرًا عن عصر الخليل؟

وثمة أمر ثالث نرى أن المؤلف يخرج به من استقراء أبيات المخطوطة بما لا يخدم هدفه، وهو التدخل في الأمور الشخصية للخليل؛ فهو يرى أن أسماء نساء قد ورد في المخطوطة، فسمّى ذلك غزلاً، وإنما أراد صاحب المنظومة أن يضرب أمثلة نحوية من أسماء النساء. فوجد أن هذا الأمر يتعارض مع ما عرف عن الخليل من زهد ونسك والتزام بيت. فقضى بأن هذه الأخبار عن الخليل غير دقيقة، وأدقّ منها هذا الغزل الذي يبدو في المخطوطة، ذلك أن «حياة الخليل»، كما يلوح له، «كان لها شقان: الأول كان الخليل فيه شابًّا... وربما كتب بعض غزلياته... والثاني وفيه كان زاهدًا...[2]

إن اسم المرأة قد ورد في شعر أكثر شعراء الجاهلية والإسلام، ولم يكن ليكفي وحده أن يذكر أن صاحبه قد كان يتغزل. أما ما ذكره على الصفحتين ٤٦، ٤٧ من الأمور التي أعانته على صحة نسبة المخطوطة للخليل فهي

(1) راجع هامش الصفحة ١٠٧ من الكتاب.

(2) ص ٣١ من الكتاب.

تدخل، في نظرنا، في نطاق منهجه في التحقيق.

وبعد، فلا أدري إذا كانت هذه الإشارات كافية لاستنتاج علاقة هذه المخطوطة بالخليل أم لا!؟

منهج التحقيق

ويقع الباحث المدقق في منهج الدكتور أحمد عفيفي، في تحقيقه لمخطوطة «المنظومة النحوية»، ونسبتها إلى الخليل، على أمور يحسب أنها لا تجري في المجرى السليم لتحقيق المخطوطات:

– فمنها أنه يعثر على عشر نسخ لهذه المخطوطة، لم يجد لها ذكرًا أو أصلاً في كتب فهارس المخطوطات المعروفة مثل الفهرست (لابن النديم)، أو كشف الظنون (لحاجي خليفة)، أو مفتاح السعادة (لطاش كبرى زاده)، أو معجم المؤلفين (عمر رضا كحالة)، أو معجم المطبوعات العربية (لسركيس)، أو فهارس بروكلمان في تاريخ آداب العرب، أو أعمال فؤاد سزكين، أو فهارس مؤسسة آل البيت/ عَمّان[1]؛ ذلك أنه عثر عليها منسوخة في مجاميع أخرى هي معها. أما ذكرها وذكر بيتين منها فقط في كتاب لخلف الأحمر فقد بيَّنا ما فيه من ضعف وتمريض.

– وقد عثر عليها جميعًا في مكتبات عُمان العامة، أو التي يملكها بعض المثقفين فيها، وقد وُجدت جميعًا في مجاميع، منسوخة مع مخطوطات أخرى (ص١٤٥)، ولو وجد فيها ناسخوها أو مالكوها قيمة علمية خاصة لأفردت وحدها.

– وليس في متن واحدة منها نسبة صريحة أو غير صريحة للخليل، وإنما

(1) التوثيق، د. عبد المجيد عابدين، بغداد، ١٩٨٢، ص ٣٨.

النسبة أثبتت له على أيدي الناسخين، في نهاياتها، إلا واحدة فقط ليس فيها أية نسبة.

ولم يشك في هذه النسبة إلا ناسخ واحد، أنهى كلامه بقوله: «والله أعلم بصحته» (ص٤٦). ويخيل للباحث أن هذا الناسخ يحمل من الشك في هذه المخطوطة وفيمن نسبت إليه قدرًا كافيًا، كما يبدو من قوله قبل العبارة السابق ذكرها «على حسب الطاقة والإمكان». والغريب أنه يقول قبل ذلك: «تم معروضًا علي:!!! والمعروف أن النسخة التي فرغ ناسخها من نسخها يُذكر عليها أنها عرضت على الأصل فيقال «بلغ عرضًا على أصله» أو «على الأصل» كما وجدت أنا في تحقيقي لمخطوطة «مجمع البلاغة» للراغب الأصفهاني.

ثم إن الباحث لم يجد في متون هذه المنظومة أو حول متونها نسبة للخليل؛ كذلك لم نجد عليها ما يفيد بشيء حول طرق التحمل الأخرى: كالإجازة أو الإملاء مثلاً أو السماع أو الوجادة. فليس عليها ما يفيد بأن المؤلف أجاز أحد تلاميذه بنسخها ونقلها وروايتها، أو أنه أملاها على أحد في زمان أومكان، أو أن أحدًا سمعها من المؤلف، أو أنه وجد عليها في الأصل، ما يفيد بصلتها بالمؤلف.

وتسلسل المراجع المختصة طرق تحمّل الحديث النبوي الشريف أولاً وأساليب نقل العلم والتعليم في سائر العلوم ثانيًا، بما يلي بدءًا بالأهم (١) السماع. (٢) القراءة على الشيخ. (٣) الإجازة. (٤) المناولة. (٥) المكاتبة. (٦) السماع دون الإذن بالرواية. (٧) الوصية. (٨) الوجادة[1].

(1) مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، دار الحكمة، دمشق، ١٩٧٢، ص ٦٢– ٨٦.

– وكما أننا لم نجد عليها ما يفيد بقدمها أو عراقتها، كذلك وجدنا عليها تواريخ نسخ حديثة. فمنها: ما نسخ عام ١٢٧٧هـ)ص١٥١)، ومنها: ما نسخ عام ١١٤١هـ)ص١٥١) أو عام ١١١٧هـ. وليس على غيرها تواريخ نسخ قط.

– ومن الغريب أن المحقق يعتمد في صحة نسبة المخطوطة للخليل، من بين ما ذكر سابقًا، على مرجع مطبوع حديث نشر عام ١٩٩٢م !! اسمه «إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عمان»، سيف بن حمود بن حامد البطاشي — ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، عُمان !! (راجع ص ٤٩).

– ومن الغريب، أيضًا، أن المؤلف يعتمد، في الحديث عن تحقيق هذا النص ونسبته، على كتب بعيدة عن مراجع أصول تحقيق المخطوطات ونشرها، مثل مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والتربوية، ومناهج البحث في التربية وعلم النفس. (راجع هامش ص٣٧).

– بل الأغرب أن يعتمد المؤلف على مرجع لم يظهر بعد !! فهو في هامش ص١٦ يقول: «موضوع» المنظومات النحوية تاريخها وأهميتها العلمية «محور لبحث مازلت أجمع خيوطه وأعمل فيه ولم أنته منه بعد»!!!. أقول إنه بحث جليل حقًا لو تم وطبع ونشر.

– ولقد اعتمد مرة على معجم العين المنسوب للخليل، ليقوي نسبة المنظومة له. وهذا أسلوب علمي متبع في ربط مصنفات المصنف الواحد بعضها ببعض من الداخل. ولكن الشك في نسبة معجم العين للخليل، كما طبع ونشر، أمر ليس سهلاً نفيه[1].

– وتبقى النقطة الأخيرة مقلقة أكثر، ألا وهي اعتماد النسخة الأم. إن

(1) راجع المزهر للسيوطي ١/ ٨٦– ٩٢.

المؤلف يذكر أنه اتخذ إحدى النسخ العشر للمنظومة النسخة الأساس أو النسخة الأم، للأسباب التالية (ص١٤٧):

١) كان الناسخ حريصًا على ضبطها ضبطًا صحيحًا إلى حد بعيد.

٢) جودة خطها وعدم التباس كلماتها أو غموض حروفها إلا في القليل النادر.

٣) من الواضح أن الناسخ كان أمينًا مع نفسه، فقد كان حريصًا دائمًا في هذا المجموع الذي جاء كله بخط واحد.

إن هذه الاعتبارات جميعها لا تقوم في أسس التحقيق العلمي لكتب التراث. وإنما الذي يحسب له حساب في النسخة الأصلية هو:

أ – أن يكتبها المؤلف نفسه وعليها توقيعه.

ب– أن يشير بكتابتها.

جـ– أن يمليها أو أن يجيزها.

د– أن يكون عليها ما يفيد اطلاعه على نسختها أو قراءته لها[1].وهذه هي طرق التحمل الصحيحة.

المنظومة من الداخل

ولدى النظر في هذه المنظومة من الداخل، بعد أن تسرب إلينا الشك فيها من الخارج، تستوقفنا ثلاث طوائف من الملاحظات التي تلفت الانتباه وتثير الاستغراب.

فأما الأولى فتتصل بصياغة التراكيب صياغة تبدو فيها الركاكة، التي تتنافى

(1) راجع تحقيق النصوص ونشرها، عبد السلام هارون، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥، ص٣٥– ٣٦ وكذلك التوثيق، تاريخه وأدواته، عبد المجيد عابدين، بغداد، ١٩٨٢، ص ٢٨.

مع قوة النسج الفني في النثر، أواخر القرن الثاني الهجري – عصر الخليل.

– ففي البيت (٢٦) يقول: «فيظل يسخر من كلامك معرب»، فهو قريب من الصياغة العامية.

– وفي البيت (١٩٦): «يرجع سليمًا غانمًا لا يغلب»، وهذه صياغة شعبية.

– وفي البيت (١٩): «واستعجم الناس الذي من مثلهم» والصواب الذين.

– وفي البيت الثالث – وعلى النبي محمد من ربه أزكى صلاة – وهو تعبير شعبي.

– وعن المنظومة يقول ناظمها في البيت الرابع: «إني نظمت قصيدة حبّرتها» – وهل يلزم للنظم تحبير؟ ألا يكفي أحدهما؟

– ويريد أن يمدحها فيقول «عربية» لا عيب في أبياتها «(البيت السادس) – وماذا ستكون إن لم تكن عربية؟! وهل ثمة شك في عربيتها؟

– وهم «يتعجبون من الصواب ركاكة» (البيت ١٣)– وماذا عنى بركاكة؟

– «وحروف خفض الجر» (البيت ٣٢) – أليس الخفض هو الجر؟ فكيف نضيف الشيء إلى نفسه؟

– «وحروف رفع النحو» (البيت ٥١)، وهل ثمة حروف رفع الصرف؟

– «ومضى الصحابة قبلُ» (البيت ١٨) أليست «قبل» حشوًا؟

وأما الثانية ففي صياغاتها غموض حينًا واستغراب حينًا آخر.

– فقوله أثيرت في العمارة أرنب (البيت ١٤٧)– كيف نتصوره؟

– وقوله عن القرآن الكريم في البيت (١٧):

لا لحن فيه، فمن تلاه لاحنًا عمدًا فذاك على التلاوة يكذب

وهل كثير أن تقول عن القرآن الكريم أنه لا لحن فيه ؟! فأين الفضل في

هذا الكلام؟

– وعن لغة النبي يقول في البيت (١٥) أنها «من كل ما لغةٍ أصحُّ وأصوبُ» فكيف أقحمت «ما» بين المتضايفين بهذا الاستعمال الثقيل؟

– وفي البيت ١٨٧ تفاضل الناظم بين هيُؤ وأتقن فيقول:

«أهيا وأتقن في الكلام وأوزن»، والتفاضل منهما بصيغة ما أفعل.

وأما الثالثة ففي بعض تراكيبها وجملها ما يدل على مواضعات اجتماعية حديثة ومعاصرة. فهو في البيت ٢٤ يستعمل كلمة «طبيخ» وأحسب أنها عامية معاصرة، وفي البيتين ٢٢، ٢٣ يروي قصة الثعلب الذي رام عنقودًا من العنب، فلما أعياه قال هذا حصرم! حتى لو كانت القصة مبثوثة في بعض كتب التراث، فإنها لا ترقى إلى نهايات القرن الثاني الهجري.

وربما يكون من هذا القبيل تكرار اسم زيد واسم عمرو، أكثر من عشر مرات في المنظومة. ولا أحسب هذا الأمر إلا مستحدثًا في الإكثار من الأمثلة النحوية حتى الملل، أو هو على الأقل متأخر من عصر الخليل. ويلحق بها المثال النحوي المكرر كثيرًا «أكلت الحوت حتى رأسه» (البيت ١٣٧).

وفي النفس أمر آخر يأتي، هذه المرة، من الوزن العروضي لهذه القصيدة. فالذي أعرفه أن هذه القصائد الطويلة المنظومة أو الألفيات إنما تنظم على وزن بحر الرجز، وبقافية ورويّ متجددين في كل شطرين متقابلين في العروض والضرب. وقد مثلنا على ذلك بأربعة أشطار من هذا الرجز من ألفية ابن مالك وهو يشير لألفية ابن معطٍ، التي أحسبها هي أيضًا من وزن البحر نفسه. حتى إن أرجوزة الأمثال التي نظمها أبو العتاهية في الحكمة هي أيضًا كذلك. فكيف انفردت منظومتنا المنسوبة للخليل بوزن البحر الكامل برويّ

وقافية ثابتين في جميع الأبيات؟

إن النظر في المنظومة من الداخل يزيد الشك لدينا في أمر نسبتها للخليل.

الخط

ومن قبيل النظر في المخطوطة من الداخل معرفة الخط الذي كُتبت به.

ومن الاطلاع على نماذج المخطوطات العشر، التي عرضها المحقق في الكتاب فيما بين صفحتي ١٦٥- ١٧٦، يجد الباحث أنها كتبت جميعًا بخط النسخ المقروء بسهولة ووضوح وجمال. وقد كتبت جميع أبيات هذه النماذج كتابة شعرية واضحة، كل بيت شعري في سطر مستقل، وبين صدره وعجزه فاصل واضح. وقد شكلت الكلمات شكلاً تامًا بمختلف الحركات، في صفحات النماذج المعروضة كلها.

ولدى التدقيق في هذا الوصف يرى الباحث، الذي عرف طريق تحقيق كتب التراث وخبر معاناته، أن هذا الخط حديث، لا يرقى إلى نهايات القرن الثاني الهجري. ولما كانت معرفة تاريخ الخط تعين على تحديد نسخ الكتاب ومكانه «كما يقول برجستراسر[1]، «ولما كان لكل عصر نهج خاص في الخط ونظام كتابته» كما يقول الأستاذ عبد السلام هارون[2]، فإننا نشك في هذا الخط النسخي، لأن «الغالب على خط أهل القرون الثلاثة الأولى هو الخط

(1) في كتابه «أصول نقد النصوص ونشر الكتب»، وهو في الأصل محاضرات ألقاها هذا المستشرق الألماني، بكلية الآداب جامعة القاهرة، عام ١٩٣٢، وترجمها محمد حمدي البكري، ونشرتها دار المريخ – الرياض، عام ١٩٨٢، ص٨٤.

(2) تحقيق النصوص ونشرها ص ٣٨.

الكوفي، كما يقول هو نفسه في موضع آخر[١]، و«لأن الخط القديم يهمل النقط والإعجام» كما يقول في موضع ثالث[٢].

فمن المعروف أن القرآن الكريم قد أخذ يُكتب منذ تنزيله بخط أقرب ما يكون لما عرف فيما بعد بالخط الكوفي. وهو خط مطوّر عن الخط الآرامي، الذي أخذه عرب شمال الجزيرة قبيل بعثة الرسول، عليه السلام، من أهل الشام، في تنقلاتهم التجارية. وقد ظلت الكتابة بوجه عام بهذا الخط الجاف ذي الزوايا نحوًا من ثلاثة قرون، حتى غلب عليه خط النسخ، وهو ابتكار سوري شمالي حذقه الشاميون الشماليون، على يد الوزير العباسي ابن مقلة. أما سبب تسميته بالكوفي، قبل أن يظهر خط النسخ، فهو أن الكوفة كانت مركز تجويد وافتنان[٣].

أما النَّقْط، أو ما عرف ويعرف بوضع النقط على الحروف، فلم يجد طريقه إلى المخطوطات القديمة، التي كتبت في هذه القرون الثلاثة الأولى، وذلك بعد أن عرف خط النسخ وكذلك الإعجام، وهو إزالة العجمة والغموض والغُفْل من الحركات. فقد عرف في خط النسخ، فعرفت الحركات الثماني (الفتحة والضمة والكسرة...إلخ)، بعد القرن الثالث والرابع الهجريين.

(1) المرجع السابق ص ٢٥.

(2) المرجع السابق ص ٣٩.

(3) قصة الكتابة العربية، إبراهيم جمعة، سلسلة اقرأ، ٥٣ دار المعارف بمصر ص ٥٦، وما بعدها. كذلك التوثيق تاريخه وأدواته، عبد المجيد عابدين، بغداد، ١٩٨٢، ص١٤. وكذلك الخط العربي تاريخه وأنواعه، يحيى سلوم العباسي الخطاط، مكتبة النهضة بغداد، ص٥٣.

فقد حققتُ مخطوطة كبيرة للراغب الأصفهاني، الذي عاش إلى أوائل القرن الخامس الهجري (٤١٥) تقريبًا باسم: «مجمع البلاغة»، ثم حققتُ، بفضل الله تعالى، أربع رسائل مخطوطة صغيرة للمصنف نفسه، دون أن أجد في أي منها نقطًا وإعجامًا، كالذي وجدته في الصفحات المضروبة مثلاً للمنظومة المنسوية للخليل.

من هذا كله يرى الباحث أن الخط الذي كتبت به نسخ المنظومة العشر (المنسوبة للخليل بن أحمد) يُشك فيها جميعًا وفي نسبتها هذه. وذلك لما وجد فيها من ركاكة في صياغة التراكيب، وغرابةٍ وتعقيدٍ ومعاصرة في بعض المعاني والألفاظ، ولما روي حول الخط الذي كتبت به.

وهنا يتضاعف لدينا الشك في علاقة الخليل بهذه المنظومة ويتأكد.

شك سابق

إن الشك في أمر هذه المنظومة وأمر نسبتها للخليل بن أحمد لم يصدر أول مرة مني، ولكن سبقني إليها غير واحد.

ولعل أول من شك فيها أحد النساخ لإحدى النسخ. وذلك في قوله «والله أعلم بصحته». كما يبدو من صورة إحدى صفحات هذه النسخة ص١٦٦. ففي هذه العبارة من التمريض ما فيها.

أما الثاني فهو الأستاذ عز الدين التنوخي، عضو المجمع العلمي العربي بدمشق، في تحقيقه لكتاب «مقدمة في النحو»، من تأليف خلف الأحمر. فهو يقول في هامش ص٢٨٦ عن هذه المنظومة، «إن صحت نسبتها». وفي هذا التعبير شك كافٍ وعدم اطمئنان، وإن ذهب في أثناء هذا الهامش يفكر في احتمالات

إثباتها.

أما الثالث، فهو الأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائي– رحمه الله – فهو يقطع الشك، ولا يكتفي به، حينما يقول: «ولا أراها تصح». ولم يكن شكّه في نسبة الأبيات للخليل فحسب، ولكن في وجودها أصلاً. فهو يقول في كتابه «المدارس النحوية، أسطورة وواقع»، عمان ط١: ١٩٨٧، ص١٣٥، ١٣٦.

«وإذا صحت هذه الأبيات، ولا أراها تصح...» ...

وحسبك بهذا الأستاذ الباحث المدقق في اللغة وعلومها ثقة وعلمًا.

وفي الختام

وفي الختام يحسب الباحث أنه قد أشار إلى عوامل الشك في أمر نسبة هذه المنظومة للخليل بن أحمد الفراهيدي بالتدريج. فقد كانت البداية فقدان ذكرها في قائمة إبداعات «عبقري العرب»[1]، إلا على لسان راوية قد عرف عنه نحل الشعر لغيره بعد أن يقوم بنظمه. ثم كانت الإشارة إلى بعد المسافة الزمنية بين زمن الإبداع الخليلي وعصره وعصر تجميع مواد الموسوعات والقيام بنظم القصائد والألفيات في بعض الموضوعات الخاصة.

ثم إننا قد رأينا ضعف محاولة نسبة هذه المخطوطة للخليل من خارجها، من خلال أعلامها ومصطلحاتها، ومن داخلها في ركاكة تراكيبها اللغوية وغرابتها وهلهلتها، وفي منهج تحقيقها والخط الذي كتبت به، مما دلّ، في النهاية، على تهاوي تعليقها بالخليل ونسبتها إليه.

(1) لقب أطلقه عليه الدكتور يوسف العش، في بحثه المعمق عنه، وقد وضعه أولاً ونشر في سلسلة اقرأ، ثم أضاف عليه وتوسع فيه في طبعة ثانية.

وهكذا

وهكذا يخيل للباحث المدقق أن نحويًا عُمانيًا غيورًا من أهل القرون الثلاثة الأخيرة في زماننا، قد استهوته رواية مولد الخليل في بعض أنحاء سلطنة عمان، فهب محاولاً إثبات هذا الأمر، فنظم نحوًا من ثلاث مئة بيت، يشرح فيها بعض القضايا النحوية، وينسبها له، ثم تناسخ الناسخون هذه النسبة للخليل بن أحمد، وسموه العروضي أو الخروصي في بعض النسخ، دون التنبه إلى أنها فاقدة الجذور التاريخية والسوق والأغصان البنائية القوية.

المصادر والمراجع

١) أحمد عفيفي، المنظومة النحوية للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠- ١٧٥) — دراسة وتحقيق، ط١، المنتدى الأدبي، وزارة التراث القومي والثقافة — عمان — ١٩٩٥.

٢) حاتم الضامن، عشرة شعراء مقلون — جامعة بغداد - ١٩٩٠.

٣) ابن خلكان — وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس — دار صادر — بيروت، ١٩٦٠.

٤) السيوطي — بغية الوعاة في أخبار النحاة — مطبعة السعادة، ١٣٢٦هـ.

— المزهر في علوم اللغة وأنواعها — تحقيق محمد أحمد جاد المولى وزميله، ط٤، ١٩٥٨.

٥) عبد السلام هارون - تحقيق النصوص ونشرها، مؤسسة الحلبي القاهرة ط٢، ١٩٦٥.

٦) عبد المجيد عابدين، التوثيق تاريخه وأدواته، بغداد، ١٩٨٢.

٧) الشريشي، شرح المقامات الحريرية، المطبعة الخيرية ١٣٠٦هـ.

٨) أبو بكر الزبيدي — طبقات النحويين اللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف.

٩) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة نهضة مصر، ١٩٥٥.

١٠) ابن القفطي، إنباه الرواة في طبقات النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية ١٩٥٠.

١١) عبد الله بن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار فراج، دار المعارف، ١٩٢٨.

١٢) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق شعيب الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق.

١٣) ابن النديم، الفهرست، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٨هـ.

١٤) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.